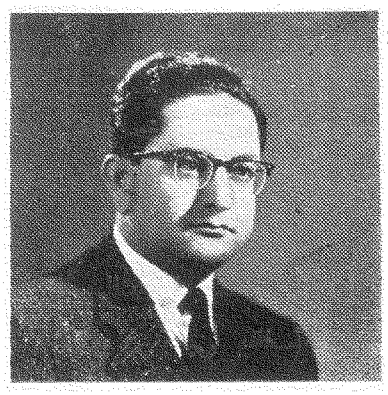

الواقع العميق

بقلم جوزف سفيرلي

تمر الامم في محن كثيرة عبر تاريخها ، وغالبا ما تكون تلك المحن ابواب خلاص لها ومدارج تقدم ، ان هي لم تستسلم للظرف العصيب ، بل عرفت كيف تحد من اضراره وتفيد من عبره .

ونحن اليوم في لبنان نعيش واحدة من الشدائد القاسية تختبرنا كشعب وكافراد ، فيعرف ما اذا كنا اهلا بالحياة الحرة ، قديرين على تخطي العقبات الكأداء ، جديرين بتسلم قيادة شعبنا وبناء مستقبله الافضل .

وان لمحة على تاريخنا تدلنا دلالة كافية على اننا لا زلنا مجتمعا في طور النشوء والتكوين ، لما يبلغ بعد شكله ومستواه الثابتين النهائيين ، سواء من الناحيةالقومية كأمة او منالناحية المجتمعية كديمقراطيةحقيقية.

وفي عرفنا ان المحنة التي تهز كياننا اذ تدعونا بقساوة وعنف الى مجابهة معاضلنا وتبصر قضيتنا بجراة وتفهم وعمق ، سوف تكون ـ اذا شئنا ـ حلقةفي تطورنا نحو التقدم وحركة في تمخضنا عنصيرورتناالنبيلة.

وقد يبدو من الصعب ان نكشف عن كل المكامن السياسية التي سببت مباشرة او مداورة الازمة الوطنية الراهنة ، وقد يختلف الرأي العام في تحديد تلك الاسباب فتنبذ فئة ما تتمسك به فئة اخرى .

غير انه في نظرنا ـ وان وجب من الناحية العلمية الواقعية ان نستشف الدوافع القريبة للمحنة ـ يبقى من الاهم ان نرقى الى ما هو ابعد منتعديل الدستور في سبيل تجديد ولاية رئيس جمهورية وابعد من خصومات رجال السياسة ، الى ما هو ابعد من بعض الاحداث ، علينا ان نسبر غور تلك الظاهرات السياسية فندرك جذورها والمعضلات التي تكمن وراءها وتفجرها ، ونسعى على ضوء ذلك الى الخروج من الشدة بخطوات حاسمة جادة نحو بناء الغد الذي نريد .

ان الكثيرين يعلنون ان المعركة القائمة ليست معركة الجيل الطالع ، انما هي معركة الجيل الحاكم المولي ، ومن ثم فانه لا يترتب علينا تحمل اية تبعة في هذه المرحلة بالذات ، وان همنا محصور في الخروج من البلية باسرع وقت واقل ضرر لاستعادة الراحة والطمانينة .

وقد كنا نوافق هؤلاء المواطنين على رأيهم لو ان النزاع انحصر بين رجال السياسة فحسب ولم يتجاوزهم الى صفوف الشعب .

اما وقد اشترك في الصراع معظم الشعب ، فلا بد من الاقبال على معالجة الاوضاع ان لم يكن من الناحية السياسية في معناها الضيق فمن الناحية العامة الشعبية والوطنية ، لان الازمة الحالية مزدوجة التركيب.

ان لها دوافع سياسية تتجلى في منازعات رجال السياسة من معارضين وموالين حول نقاط معينة معلنة او مستورة ، ولها مضمون مجتمعي يتجلى في تألب الجماهير الوطنية حول اتجاهات معاكسة . وهذا الباطن المجتمعي للنزاع هو الذي يفرض علينا مواجهة المعضلة القائمة مواجهة المسؤولين الواعين .

وفي عرفنا انه لا يمكن فهم ازمتنا الا بادراك الامور القصية وفي مقدمتها:

١ ـ التيار الثوري العربي الجديد . ـ ٢ ـ الصراع العالمي ـ ٣ القضية القومية ـ ٤ ـ نظامنا الديمقراطي والاجتماعي ـ ٥ ـ القيادات الشعبية.

التيار الثوري العربي الجديد

منذ مئات السنين والشعوب العربية في مركز الضعف والكبو ، تسيطر عليها الدول الاستعمارية وتقرر مصائرها دونما اعتبار او تقدير . وقد اتت قضية فلسطين تكريسا دوليا صارخا لسياسة العالم الاجنبي تجاه العرب وتعبيرا مدويا لنظرياتهم الاحتقارية لهم . ولعل العرب كانوا بحاجة الى امتهانوهزة كهذين لتستيقظ كراماتهم وتنتفض هممهم .

وبالفعل كانت الاستقلالات المحصلة ومعركة فلسطين مهماز الاجيال الطالعة العربية وخميرة الوعي والتحرك ، فحصلت الانقلابات في سوريا منذ ١٩٤٩ وتبعتها الثورة في مصر سنة ١٩٥٢ فقلبت طبقة بكاملها ـ طبقة الاثرياء والباشوات ـ لتحل محلها العسكريين والطبقة المتوسطة واطاحت بالنظام الملكي لتحل محله النظام الجمهوري ـ وكان من شأن كل ذلك ان يحدث الامور التالية :

١ ـ ان يبعث عند العرب الوجدان القومي .

٢ ـ ان تهتز مشاعر الصفوف الشعبية العربية فتخلق في نفوسها الروح الثورية او الانقلابية على الاقل وتوقظ في خواطرها وعيا متزايدا لامكانيات قواها .

٣ ـ أن تحدث موجة معادية لكل الانظمة القائمة التقليدية في باقي البلدان العربية تلقي الريبة على سياسات هذه الانظمة واوليائها ، لاسيما بالنسبة للعلاقات الخارجية مع الدول الاجنبية الكبرى التي ساهمت في خلق اسرائيل.

وقد انجبت هذه الامور تيارين جديدين :

١ ـ القومية العربية الثورية التي تأبى الانتساب الى كل حركة عربية سابقة أيا كانت ، وتعتبر تاريخ العرب السابق لها تاريخ عبودية وتاريخ العرب المبتديء بها تاريخ تحرر .

وهذا المفهوم الجديد للعروبة يستتبع القضاء على كل ما لا يساير حركتها مسايرة كلية مما يفسر لنا الحرب التي تشنها بلا هوادة مصر الثورة على حكومات الدول العربية المحافظة الاخرى وسياساتها .

٢ ـ الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، اي التخلص من سيطرة الغرب وتقرير المصير بحرية واستقلال غير مقيدين باي قيد حتى ولا باعتبارات الدبلوماسية التقليدية والمجاملات المألوفة في العرف الدولي .

ولبنان ، شأن كل بلد عربي ان لم يكن اكثر من اي بلد عربي اخر ــ لم يكن بوسعه الا ان يتأثر بالتيار القومي الثوري الجديد ، هذا التيار الذي لعب دوره في تحضير الازمة الحالية التي كانت ازمة نفسية وعاطفية قبل ان تظهر الى حيز الوجود المادي العنيف .

الصراع العالمي

لم يشهد العالم في تاريخه انقساما كالذي نشهده اليوم ــ جباران عملاقان يتجاذبان الكرة الارضية .

دولة الاتحاد السوفياتي ومعها الشيوعية الدولية ودولة الولايات المتحدة ومعها الرأسمالية الدولية .

شعارهما اما معنا واما ضدنا . وان لم تكن معنا فانت ضدنا فلا مجال اذن لمعسكر ثالث . الحياد في نظرهما تحيز مستور . فمن يخرج من كتلة الغرب الى موقف الحياد يعتبره هذا الغرب على انه انحاز في الواقع الى الشرق ووقع في شراكه (كمصر مثلا) ومن يخرج من كتلة الشرق الى موقف الحياد يعتبره هذا الشرق على انه انحاز في الواقع الى الغرب ووقع في شراكه (كيوغسلافيا مثلا) .

ولما كانت مناقبية الدهر قد اعلنت ان الحق بجانب القوة فمن يخالف الاقوياء ومن ثم نظرياتهم فانه على ضلال . وقد ساد الاعتقاد بان الاخذ بمبدأ الحياد بين القطبين انما هو الخطأ والوهم بالذات . ولكي يوهما دول العالم الاخرى، تستر المعسكران بالدفاع عن القيم العليا والحقوق المهضومة فتمنطق الغرب بدرع انقاذ الحرية والمحافظة على الروحانية وتمنطق الشرق بدرع حماية الطبقات الكادحة ومناصرة الشعوب المستعمرة واحتكرا هذا الدفاع . وقد اصبح على الشعوب الصغيرة التي لا ناقة لها ولا جمل في الصراع المحتدم بين العملاقين : اما ان تنجر وراء احدهما وتتقيد بما يرسم من خطط ومشاريع ، واما ان تتعذب وتتحمل الضغط والمتاعب .

اجل يريد المعسكران الامم ــ والصغيرة منها خصوصا ــ على ان تختار بينهما راضية او ان تنقسم على ذاتها فتختار كارهة او تتعذب . وبين الاحتمالين ، راحت الدول الصغرى تعاني مشكلة نفسية كثيرا ما تتحول الى ازمة وطنية كما هي الحال عندنا اليوم في لبنان .

ولما كان قد قيض لوطننا ان يقع في بقعة جغرافية متوسطة بين الشرق والغرب فتتلاقى فيه تأثيرات التيارين الجبارين بقوة متساوية ، وبدل ان يؤدي هذا التلاقي الى تفاعل خير مثمر عن طريق الجدلية المسالمة ، اذا بالتفاعل يتم عن طريق التصادم العنيف الدامي . وما التهم التي يتراشق بها اليوم الفريقان المتخاصمان عندنا فيتهم المعارضون الموالين انهم عملاء الاستعمار الانكلو الاميركي ، ويتهم الموالون المعارضين انهم عملاء الشيوعية الدولية ، ما ذلك سوى تعبير سياسي للصراع الدائرة رحاه في ربوعنا بين المعسكرين العالميين .

قضيتنا القومية

وحتى يومنا هذا ، لم يتم في لبنان اجماع المواطنين على هويتهم القومية . فمن قائل بانه قومي لبناني محض ، الى قائل بانه قومي سوري ، الى قائل بانه قومي عربي ، الى قائل بانه مواطني لا قومي .

وامام هذه البلبلة في الاتجاهات القومية نتساءل : ترى ايكون اللبنانيون متعددي القوميات ، ام انهم ذات قومية واحدة ضلوا سبيلها فلم يهتدوا بعد جميعا اليها ؟ ونتساءل ايضا : أمن الخير والضرورة ان يبت اللبنانيون بهويتهم القومية ام على العكس من الخير والضرورة ان يطرحوا هذه المعضلة جانبا ، فيأخذوا بالمواطنية دون القومية ؟

نسرع هنا فنجيب ان عدم البحث في القومية يصح فيما لو رضي جميع السكان الا يبحثوا فيها ، اما اذا ما اثار قسم من السكان القضية القومية فمن المستحيل عدم التعرض لها ويتحتم على الجميع البت فيها ويغدو تجاهلها او الاعراض عنها موقفا وهميا غير مفيد . ونحن في لبنان لا يسعنا سوى خوض غمار المعركة القومية والفصل في منازعاتنا فيها لانها مطروحة عندنا على بساط البحث بأعنف شكل .

ولعل موقف لبنان حتى اليوم ، اي اعراضه عن مواجهة المشكلة القومية بجد وتصميم وتغطية الخلافات القومية بعبارات المجاهلة والمخادعة والرياء ، هو ما حول المصارحة العلنية المخلصة والعمل الى التوافق في هذ الحقل الى كبت نفسي ثم الى عقد نفسية خاصة وعامة .

وفي الانقسام الهائل اليوم بين فئات الشعب يد طولى لظهور الشعور القومي المكبوت باشكال عدائية تعددت بتطرفها ــ كردة فعل نفسية ــ حقيقتها الصافية الهادئة ، فاذا بالمواطن القومي العربي يتجه بردة فعل نفسية ــ نحو مراكز القومية العربية المغالية ، واذا بالمواطن القومي اللبناني يتجه بردة فعل نفسية ايضا نحو امكانيات الحماية الخارجية!

هذه هي الهوة التي تفصل اليوم بين ابناء الوطن الواحد، هوة نفسية تعكس خلافا جوهريا حول الهوية القومية التي يريد كل لبناني مخلص ان يستقر نهائيا على حقيقتها .

ولا عجب في مثل هذه الحالة النفسية المتطرفة ان تطفو على نفس المواطنين وقلوبهم المهيجة رواسب الماضي البغيض من طائفية وعصبية واقليمية وتوسعية .

ولا عجب ايضا ان يتهافت المستغلون من السياسيين والنفعيون من المتزعمين على هذه الحالة ليزجوا بمصالحهم وغاياتهم فيها ويزيدوها تشويها وغموضا .

اما من يترفع عن الملابسات والمضاعفات ويحافظ على ادراكه ووضوح عقله واخلاصه وينفض الاعراض والقشور فيعيد القضية الى نصابها ويقعدها في اطارها الصحيح فانه يرى ان لبنان يعاني اليوم فيما يعاني ــ تحت غبار الاحداث والرواسب الكثيف ــ ازمته القومية ، انه يفتش عن هويته .

ماذا تراه يكون : لبنانيا صرفا ام سوريا ام عربيا ؟

قضيتنا الديمقراطية

منذ النظام الاقطاعي العتيق الذي عاشه مجتمعنا حتى منتصف القرن التاسع عشر ، الى فشل محاولات الحركة الاجتماعية التحررية في القرن نفسه بسبب الانقسام الديني الذي بعثه وكرسه الحكم العثماني تحت اشراف الدول الغربية ، الى تنظيم لبنان كولاية عثمانية يحكمه حكام اجانب

وفقا لنظام منبثق عن وضع شاذ جعلوه اساسا لحياة دائمة طبيعية فاستمر من سنة ١٨٦١ حتى الحرب العالمية الاولى (النظام الاساسي سنة ١٨٦١) ـ لم يعط لبنان فرصة لممارسة حياة ديموقراطية صحيحة .

وعندما حل الانتداب، كان هم الانتداب الاول كسب المغانم واخضاع البلاد لسيطرته على الطريقة الاستعمارية . فحكمها ـ لا حسب روح شرعة عصبة الامم اي في سبيل ابلاغها الحياة المستقلة المحترمة والديمقراطية الصحيحة الخيرة ـ بل حكمها حسب روح نظام ١٨٦١ وذهنية القرن التاسع عشر . فكرس التفريق الديني كاساس للتمثيل الشعبي بدل ان يعمد الى ازالة كل اثر للتفرقة القديمة ويحل الوحدة القومية مكانها عملا بمباديء الحضارة الغربية نفسها. وهكذا قضى لبنان خمسة وعشرين عاما تحت الانتداب ، وعوض ان يتمرس على النظم الجمهورية الديمقراطية الحقة تمرس على تقاليد رجعية ابعد ما تكون عن الديمقراطية والوطنية. وقد ولد الاستقلال في هذا المهد من التفسخ القومي والانحراف المناقبي ، بين ايدي الساسة من ابناء المدرسة العثمانية الانتدابية . وهكذا نشأت فئة من الاثرياء والاقطاعيين احتلت مراكز القيادة ومقاعد الحكم في السلطتين التنفيذية والتشريعية ، فئة فهمت الاستقلال ضربا من السيطرة العابثة والاستقلال بدون رقيب وراحت تتعاطى بالشؤون العامة والادارة والثروات الوطنية كانها فريسة او غنيمة . وقد رأت هذه الفئة ان الاطار القديم ملائم مصالحها ، فوطدته ورفعت الرواسب الطائفية والرجعية الى مرتبة الصفات العامة والتقاليد الثابتة ، فغرس في نفس المواطن ان يرى وطنه خلال طائفيته ودولته خلال نائبه الطائفي ووظيفته ومصالحه وحقوقه خلال حصة طائفته من كوتا الادارة والاعمال والشؤون العامة .

وهكذا تركز في قلب اللبناني التعصب الطائفي بدل ان يتركز في قلبه التعصب الوطني .

وقد رافق ذلك فقدان التربية المدنية والتوجيه الصحيح في المعاهد والمدارس لا بل افسح المجال حرا طليقا امام التيارات الاجنبية تتنازع الناشئة وتلقنها كل شيء ما عدا الروح الوطنية والوعي القومي والحس المدني.

وبني ذلك كله على قاعدة اجتماعية متداعية : انخفاض في مستوى المعيشة عند اغلبية السكان وتفشي البطالة المتزايدة لاسيما في القرى التي راحت تقفر من اهاليها بداعي الهجرة الى المدينة وديار الاغتراب ، وفقدان التشريع الاجتماعي ، واضطرب بين علاقات ارباب الصناعات والاعمال الناشئة والجرائم .

كل ذلك افسح المجال امام المتزعمين والمتمولين لينقضوا على الوضع يستغلونه بدون هوادة ، فلجأوا الى الطائفية والخدمات الشخصية والرشوة كابواب شبه رسمية يلجونها الى النيابة والمناصب العليا . ومع الزمن فسد مفهوم المصلحة العامة والدولة والمؤسسات واختلطت المقاييس والقيم وافرغت الحياة الديمقراطية من مضمونها الحقيقي فاصبحت شكلية ، فاذا بالتمثيل النيابي وسيلة لحماية المصالح الرأسمالية والقوى الاقطاعية وامتداد للسلطة التنفيذية ، واذا بالمجلس النيابي ابعد ما يكون عن تمثيل الارادة الشعبية ولا يتجاوب مع حاجات البلاد وتياراتها ، والبرلمان الحالي اصدق صورة عن ديمقراطيتنا الشكلية اذ ظل غائبا لم ينعقد مرة منذ نشوب الازمة المستحكمة ليتدارسها ويجد لها الحلول المنشودة ، في حين راينا كافة الهيئات تنكب على الحالة تحاول معالجتها .

وعندما لا يجد الشعب نفسه منعكسا في مؤسساته يتبرأ منها وتسقط قيمة شرعيتها في ذهنه فيسعى الى استعادة سلطته بالسلم او بالقوة .

القيادات الشعبية

ان مراقبة انظمة الحكم في دول العالم تدلنا على ان قيام الدول الديمقراطية الحقة ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظام التمثيلي الحزبي ، وان اكثر تلك الديمقراطيات نجاحا هي التي ترتكز على الاساس الحزبي الثنائي (بريطانيا والولايات المتحدة مثلا) واكثرها تخلفا هي تلك التي لم تعرف بعد التمثيل الحزبي التام ولا تزالت تعتمد الزعامات الشخصية (من متمولين واقطاعيين) لتأليف المجالس النيابية .

ذلك ان الاحزاب السياسية والنقابات وحدها تستطيع تكتيل المواطنين تكتيلا نضاليا منظما حول مطالب واضحة

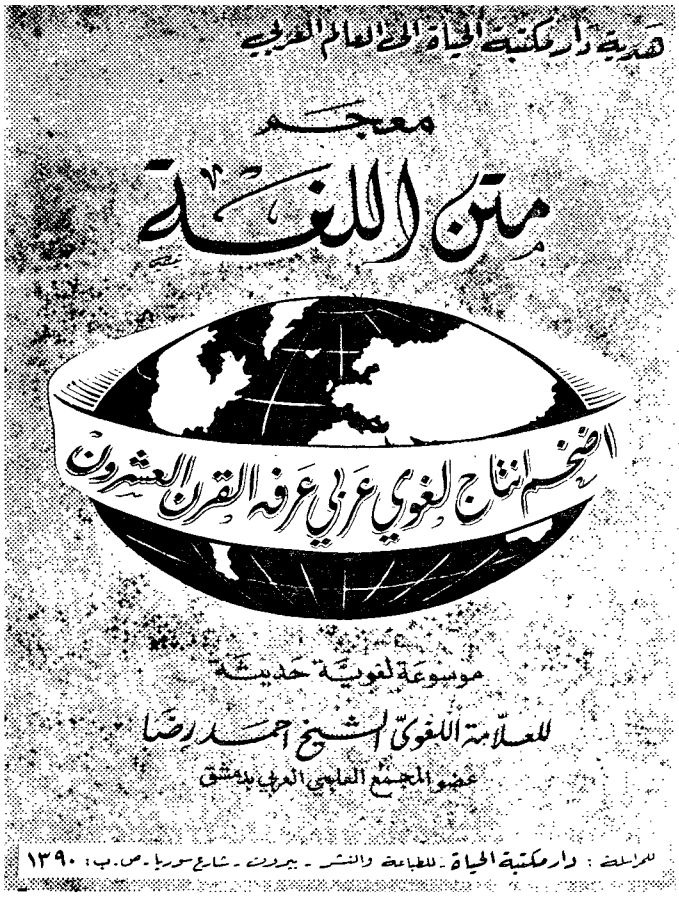

جماعية سليمة توضع في قوالب برنامجية وتخضع في تحقيقها لخطط مرسومة قريبة او بعيدة المدى ولرقابة متواصلة جدية .

ونحن في لبنان لا نزال نحيا ديمقراطيتنا خارج التمثيل الحزبي ، اي بعيدا عن قاعدتها الصحيحة . اما الاحزاب القائمة فلم تصبح بعد القاعدة المنشودة لحياتنا الديمقراطية!

١ ــ لانها تشكو في تكوينها علة الطائفية او الاقليمية، وتشكو ازدواجية الشخصية اذ تعلن ما لا تفعل وتبطن غير ما تظهر . فهي احزاب فئتية غير وطنية .

٢ ــ لانها ضئيلةالاثر جدا في حياتنا التمثيلية النيابية (فعلى ٦٦ نائبا في المجلس الحالي يمثل الحزب القومي السوري مقعدا واحدا ــ والكتائب مقعدا واحدا ــ والاشتراكي مقعدا واحدا ، والشيوعيون وباقي الاحزاب لا شيء) .

٣ ــ لانها نزاعة الى الحكم الفردي لا الديمقراطي نظرا لظروف نشأتها التاريخية وتركيب قياداتها الاجتماعية .

لا بل لاحظنا حتى اليوم في الفترات الخطرة من حياتنا الوطنية ان الاحزاب الموجودة نفسها غالبا ما تنقاد وراء الزعماء وما يؤلبون من حركات بدل ان تتولى هي بنفسها قيادة تلك الحركات وتوجيهها ، مما اضعف ثقة الرأي العام بتلك الاحزاب وبامكانياتها وفعالية ادوارها .

وقد استتبع وضع الاحزاب هذا ان ظلت الجماهير باغلبيتها الحية خصوصا (الطبقة العاملة والمثقفون) خارج النضال غير منضوية في الاطر الحزبية . كما تعرضت القوى الشعبية للتبعثر والتشتت وافسح المجال امام المستغلين ليسيطروا عليها بوسائل غير ديمقراطية (بواسطة الازلام والاموال والخدمات والتهديدات والاوهام). ولما كان الزعماء السياسيون المنفردون غير الحزبيين قلما يراودهم غير احلام ومصالح شخصية ، فهم لا يضعون لنشاطاتهم اهدافا بعيدة عامة وخططا سليمة . وان دراسة جدية لتركيب البرلمانات المتتابعة عندنا وتحليل نشاطها لافصح بينة على ما نقول

وهكذا نرى الصفوف الشعبية تسير وراء السياسيين على غير هدى تخدمهم وتخوض المعارك تحت امرتهم ولا تعلم ماذا ستجني لنفسها سوى التضحية والبذل .

ولعل المعركة الدائرة رحاها اليوم في لبنان اسطع مثال على فقدان القيادة الشعبية المنظمة وعجز الاحزاب الموجودة عن دور التوجيه فيها ولعبها دور التبعية المسيرة وما يكلف هذا الوضع من تضحيات وخسائر دونما هدف مرسوم او كسب شعبي محسوس .

***

ان اسباب محنتنا معقدة جدا ولا تستنفد تعدادها مثل هذه الملاحظات . واذا اردنا الاشارة الى الاخر منها الذي يستحر بشدة في صميم مجتمعنا الصغير ، فسعيا وراء تفهم اوضاعنا تفهما جديا واقعيا وتدليلا على ان الازمة ليست ظاهرة سطحية مفتعلة بل تعبر عن معاضل قصية راهنة ورغبة منا في تخطيط مسلكنا تجاهها تخطيطا علميا وعمليا يستند الى الواقع العميق .

جوزيف مغيزل

مقاومة شعبية !

مهداة الى صائب سلام

عمري ، على هز السوانح
لهواك يا بلدي يكافح
حريتي دميت ، فحرب
عزتي، والنبل جامح
يا ادمعي جفت ، وشد
خيالها ، لهب الجوارح
حر النداء ، وموعدي
صاف ، وحق النصر كالح
مني الجهاد وبذله
يفدي قضية اي نائح

***

يا « عهد » رواك الفجور
بنشوة السود الروائح
انزلت هما بالابناء
فجن تحت العار رازح
عزمي تأجج ، والهتاف
يئن في قلبي المسامح
قصفتك يا محتلّ ارض
النور نقمة كل كادح
شرف البقاء ، ولن تكون
هنا أيا محتل فاتح

***

يا غاصبين وفوق غزوكم
صدى الاحرار صائح
سأزيلكم .. سأبيد شركم
ليسلم كل صالح
اشقى ، اموت انا ، بمعركة
العلى واظل طامح
ويظل حبي سيدا
حب الالى سادوا يصافح

جورج رجي